البحث الحادي والعشرون

نجاة أهل الكتاب ونوالهم أجرهم عند ربهم

ودخولهم الجنة لأجل استيفاء ثواب أعمالهم الطيبة

والنار لعقابهم على الأعمال القبيحة والاعتقادات الباطلة كالمسلمين

بنص القرآن الكريم

قال تعالى في سورة البقرة ٦٢: (إن الذين آمنوا والذين هادوا النصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون)، وقال في سورة المائدة ٧٢: (إن الذين آمنوا والذين هادوا والصائبون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) وقال في سورة النساء ١٢٢ : (ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوء يجز به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا).

أقوال المفسرين في هذه الآيات

وبيان ضعفها

اختلف المفسرون في المراد من قوله (الذين آمنوا) المذكورة في آية البقرة والمائدة وسبب هذا الاختلاف قوله تعالى في آخر هاتين الآيتين (من آمن الخ) فان ذلك يقتضي أن يكون المراد من الإيمان في أحدهما غير المراد منه في الآخر. وقال بعضهم المراد الذين آمنوا بألسنتهم دون قلوبهم وهم المنافقون أي أن المنافقين واليهود والنصارى والصائبين من آمن منهم بالله واليوم الآخر وبالدين الحق ورجعوا عن ضلالهم وعملوا صالحا فإن الله يقبل إيمانهم ويعطيهم ثواب أعمالهم. وقال بعضهم المراد الذين آمنوا بموسى وعيسى قبل مبعث محمد وبقوا على إيمانهم الصحيح ولم يضلوا بعده كورقة ابن نوفل وقس بن ساعدة وزيد بن عمرو بن نفيل وغيرهم والمراد من الذين هادوا والنصارى والصائبين من ضل عن دينه منهم أي أن الذين آمنوا قبل مبعث محمد والذين كانوا على الدين الباطل الذي لليهود والنصارى كل من آمن منهم بعد مبعث محمد بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجر عند ربهم الخ.

وقال بعضهم المراد من قوله للذين آمنوا هم المؤمنون بمحمد صلى الله عليه وسلم. وهو عائد للماضي والمراد من قوله (من آمن بالله) أي تثبث على إيمانه واستمر عليه في المستقبل. ولا يخفى ما في هذه الأقوال كلها من التعسف والتمحل وعدم انطباقها انطباقا صحيحا على معنى الآية خصوصا وأنهم أدخلوا فيها الإيمان بمحمد (ص) وهو غير داخل فيها بل الداخل إنما هو الإيمان وحده.

وقال الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده في تفسيره (المراد من الذين آمنوا هم المسلمون أي أن المسلمين واليهود والنصارى والصائبين ليس لجنسية واحد منهم ولا لانتسابه إلى دينه أثر في رضاء الله وغضبه ولا يتعلق بذلك رفعة شأن قوم ولا ضعتهم بل عماد الفلاح ووسيلة الفوز لخيري الدنيا والآخرة إنما هو في صدق الإيمان بالله واليوم الآخر وفي العمل الصالح فكل من كان كذلك من كل أمة في زمنها فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون فالآية بيان لسنة الله تعالى في معاملة الأمم تقدمت أن تأخرت أي أن حكم الله العادل سواء في جميع الأمم وهو يعاملهم بنسبة واحدة لا يحابى فريقا ويظلم فريقا. وحكم هذه السنة أن لهم أجرهم المعلوم بوعد الله لهم على لسان رسولهم وحينئذ لا يوجد أشكال في عدم اشتراط الإيمان بالنبي

صلى الله عليه وسلم في هذه الآية لأن الكلام فيها في معاملة الله تعالى لكل الفرق والأمم المؤمنة بنبي ووحي بخصوصها الظانة أن فوزها في الآخرة كائن لا محالة لأنها مسلمة أو يهودية أو نصرانية أو صائبة مثلا فالله تعالى يقول (إن الفوز لا يكون بالجنسيات المدنية وإنما يكون بإيمان صحيح له سلطان على النفس وعمل يصلح به حال الناس). انتهى كلامه.

أقول: إن هذا التفسير وإن كان حسنا جدا بالنسبة لغيره من التفاسير إلا أن حمل الآية على كل أمة في زمنها وبالنسبة لرسولها ووحيها ودينها الخاص بها أمر بعيد عن وجود: (أولا) لأنه من المعلوم بالبداهة أن العبرة في كل دين من الأديان إنما هو للإيمان الصادق والعمل الصالح لا لمجرد النسبة إلى ذلك الدين والتجنس بجنسيته كما يقول الأستاذ الإمام وحينئذ فليس هناك كبير فائدة في تفسير آية بما هو معلوم للناس بالبداهة.

ثانيا- إن كون الثواب والأجر لا يترتب إلا على الإيمان الصادق والعمل الصلح أمر مذكور في عدة آيات لا تحصى من القرآن وتفسير هذه الآية التي وردت في محل خاص ولبيان أمور مخصوصة كما سيأتي بهذا التفسير بعيدا أيضا.

ثالثا- إن الكلام يجب أن يحمل على زمن التكلم به ولا يجوز حمله على أزمنة أخرى ما لم يكن هناك دليل على ذلك وهنا لا يوجد دليل على أن المراد في هذه الآية من اليهود والنصارى والصابئين هم السابقون فقط مع وجود يهود ونصارى وصابئين وقت التكلم ووقت نزول هذه الآية خصوصا وان الآية قد ذكرت معهم المسلمين الذين لم يوجدوا إلا زمن التنزيل وعليه فقد وجب أن يكون المراد من هذه الأجناس الأربعة الناس الموجودين في زمن الوحي المحمدي بعد ظهور الإسلام.

ما أفهمه في المراد من الآية المذكورة

في السورتين السابقتين

إنني أفهم في هذه الآية فهما آخر غير ما فهمه المفسرون وهو أن هذه الآية تقول أن هؤلاء الأصناف الأربعة الموجودين الآن هم المسلمون واليهود والنصارى والصابئون كل من تحقق فيه منهم ثلاث خصال وهي الإيمان بوجود الله، واليوم الآخر، والعمل الصالح فإن أجره عند الله محفوظ ولا خوف عليهم ولا حزن بلا فرق في ذلك بين مسلم ونصراني ويهودي وصابئي وبلا محاباة بينهم لأن الهمم واحدة ولأن مبدأ جميع الأديان وغايتها واحدة وهي:

أولا – الإيمان بوجود الله الواحد الأحد ذلك الإيمان الذي تذكو به النفوس وتطهر به القلوب وتعلو به الهمم وينبعث عنه صالح العمل.

ثانيا – اليمان باليوم الآخر أي يوم الجزاء الذي يكبح من جماح الغايات والشهوات والأهواء ويحذر المؤمن به من ارتكاب الذنب والإثم ومن التعدي والظلم.

ثالثا – العمل الصالح أي العمل المفيد الصالح للفرد وللمجتمع الإنساني والذي تتحلى به نفوس البشر وتصلح به شؤون الناس وعلاقاتهم مع من يعيشون معهم.

فهذه الأمور الثلاثة التي ذكرتها هذه الآية هي جماع الخير وقوام سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة وهي المقصود بالذات من جميع الأديان ومن إرسال سائر الرسل.

وإنما خصصت الآية الإيمان بالله فقط دون الإيمان بغيره من الأنبياء لأن الإيمان بالأنبياء ليس مقصودا لذاته لأنهم وسطاء فقط لحمل الناس على الإيمان بالله وحده قال تعالى (ومن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا) وقال (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا) إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة التي ليس فيها إلا ذكر الإيمان بالله فقط والتي تدل على أن المقصود بالذات إنما هو الإيمان بالله فقط وأن الإيمان بأشخاص الأنبياء والرسل إنما هو أمر ثانوي ليس مقصوداً لذاته بل لتحقيق وتحصيل هذه الأمور الثلاثة وجذب الناس إليها وتنفيذها بينهم.

ومثال ذلك أن يرسل الملك واليا أو مندوبا عنه إلى القدس مثلا لينفذ قانون الملك فكل من اتبع هذا القانون وعمل به فقد سلم من مؤاخذة الملك وعقابه سواء كان أتباعه له والعمل به بواسطة تأثير هذا الوالي الحالي أو الوالي السابق أو لم يكن بتأثير واحد منهما لأن المقصود بالذات وهو العمل بهذا القانون قد حصل.

ولكن هذا لا ينافي وجوب الإيمان بأن شخص هذا الوالي مرسل من طرف الملك ليقنع الناس بوجوب إتباعه في كل ما يأمر به عن الملك في كل حادثة ستقع وفي كل أمر سيحدث فكذلك هنا يجب ويشترط الإيمان بأشخاص الرسل عليهم الصلاة والسلام ليلتزم الناس إتباعهم في كل ما يأمرون به عن الله تعالى. وحينئذ فاشتراط الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم ووجوب الإيمان به على كل مسلم وكل يهودي ونصراني وصابئي وغيرهم ممن وجدوا بعد مبعثه وظهوره أمر لا بد منه وأمر معلوم من آيات كثيرة في القرآن غير هذه الآية لأنه هو دون غيره من الأنبياء الباب الوحيد في زمنه للوصول إلى الله تعالى والدخول في الجنة. ولكن الإيمان به ليس مقصودا لذاته كما وضحناه بل المقصود لذاته والمطلوب من عموم الناس على أي دين كانوا عليه إنما هو الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح فمتى كان الناس كذلك فهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون حيث أنهم قد قاموا بأصول جميع الأديان واتبعوا المقصود بالذات منها.

وهذا لا ينافي أن من لم يؤمن برسول وقته أو بأي رسول من الرسل يكون كافرا بذلك الرسول وان عليه قسما كبيرا من الخوف والحزن بسبب كفره بذلك الرسول وان كان مؤمنا بالله لأن الكفر ليس شعبة واحدة أو جزء لا يتجزأ بحيث من كفر بسبب شيء من الأشياء يكون كافرا مطلقا كما يعتقد كثير من الناس بل هو أمر كلي له جزيئات كثيرة فقد يكون كافرا بأحد الرسل ولكنه مؤمن بالله وبرسل أخرى وقد يكون كافرا بالصلاة والحج مثلا وهو مؤمن بالله ورسله كما ورد في بعض الأحاديث من أن ترك الصلاة كفر وكما ورد في القرآن من أن عدم الحج مع الاستطاعة كفر كما قال تعالى (ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فان الله غني عن العالمين) وقد يكون كافرا بسبب زنه وهو مؤمن بالله ورسوله والصلاة والحج وغيرهما كما ورد في الحديث (لا يزن الزاني حتى يزني وهو مؤمن) وعليه فالكفر مراتب متعددة والإيمان كذلك مراتب متعددة وكلاهما يزيد وينقص في الشخص على حسب كثرة جزئيات إيمانه وكثرة جزئيات كفره ولهذا ورد في الحديث (الإيمان بضع وتسعون خصلة أولها شهادة أن لا إله إلا الله وآخرها إماطة الأذى عن الطريق) وعليه فعدم الإيمان بأي رسول من الرسل وإن كان كفرا يعاقب عليه الإنسان أشد عقاب بعد الكفر بالله تعالى إلا أن هذا لا يمنع أن من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا يكون سعيدا مأجورا على ذلك لا حزن ولا خوف عليه من هذه الجهة وان كان سيعذب على كفره بذلك الرسول كما يعذب أيضا على كفره بترك الصلاة والحج وغيرها وإن كان الكفر بالرسول أشد عقابا وأكبر كفرا. وبالجملة فإن الأمور الثلاثة المكورة في الآية هي المقصودة بالذات من إرسال الرسل وإن الإيمان بالرسل إنما هو وسيلة إليها وأمر ثانوي بالنسبة لها.

ومما تقدم من البيان يظهر لك ظهورا واضحا للعيان أنه لا لزوم ولا داعي أصلا لتعسف المفسرين وتمحلهم لإدخال الإيمان بجميع الأنبياء أو بمحمد (ص) في الإيمان المذكور في هذه الآية التي إنما تريد بيان الأمور الرئيسية التي تتوقف عليها السعادة في الدنيا والآخرة لا الأمور الثانوية. ولو كان ذلك مرادا لها لقالت (عن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله ورسله أو بالله ورسوله الخ) ولكنها لم تقل ذلك بل اقتصرت على الإيمان بالله وحده فقط مما يدل دلالة واضحة على أن الإيمان بأي رسول من الرسل ليس مقصودا بالذات وإنما هو وسيلة فقط كما وضحناه، وأن المقصود بالذات، والمطلوب من الناس في أي دين من الأديان، وفي أي زمن من الأزمان إنما هو الإيمان بالله واليوم الآخر، والعمل الصالح كما اقتصرت عليه هذه الآية وكثير من الآيات الأخرى.

أتباع كل دين حتى المسلمين

يعتقدون إلى الآن أن دينهم فقط

هو الموصل إلى الجنة دون غيره من الأديان

مع أن القرآن لا يقرهم على ذلك

يعتقد أتباع كل دين أن دينهم هو الحق الذي يدخل به الناس الجنة دون غيره من الأديان الأخرى. وهذا ما جرى عليه الناس قديما، فإن اليهود يعتقدون إلى الآن أنه يجب على جميع الناس أن يعتنقوا دين اليهودية حتى يدخلوا الجنة، والنصارى يعتقدون إلى الآن أنه يجب على كل البشر أن يعتنقوا النصرانية ليدخلوا الجنة. وهذا ما صرح به قوله تعالى في سورة البقرة: (وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى. تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين بلى من أسلم وجهه لله، وهو محسن، فله أجره عند ربه، ولا خوف عليهم، ولا هم يحزنون. وقالت اليهود ليست النصارى على شيء. وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب. كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم. فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون)، أي قالت اليهود لن يدخل الجنة إلا من كان هودا، وقالت النصارى كذلك، فهو اختصار على سبيل التوزيع، ثم جاء المسلمون بعدهم فاعتقدوا هذا الاعتقاد بعينه وقالوا يجب على كل الناس أن يعتنقوا دين الإسلام حتى يدخلوا الجنة. وقد أشار الله إلى ذلك بقوله في هذه الآية (كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم) أي قال ذلك كل من لم يعلم الحقيقة في هذا الموضوع من أرباب الأديان الأخرى. وهو يشمل من لم يعلمها من المسلمين أيضا.

ولكن آية النساء التي ذكرناها سابقا قد ردت عليهم جميعا وخطأتهم في هذا الاعتقاد حيث قالت خطابا للمسلمين ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوءا يجز به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا. ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا) فإن قوله (ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب) وقوله (من ذكر وأنثى) صريحان في أن كل إنسان من أي دين من الأديان متى كان مؤمنا بالله عاملا للصالحات فإنه يدخل الجنة ولا يظلم من أعماله الصالحة شيئا سواء كان يهوديا أو نصرانيا أو مسلما.

ومما يدل على ما نقول ما رواه ابن جرير وابن أبي صالح في أسباب نزول هذه الآية من أنه قد التقى أناس من المسلمين واليهود والنصارى فقال اليهود للمسلمين نحن خير منكم. ديننا قبل دينكم وكتابنا قبل كتابكم وبينا قبل نبيكم ونحن على دين إبراهيم ولن يدخل الجنة إلا من كان هودا.

وقالت النصارى مثل ذلك القول أيضا فقال المسلمون: كتابنا بعد كتابكم وبينا بعد نبيكم، وديننا بعد دينكم وقد أمرتم ان تتبعونا وتتركوا أمركم فنحن خير منكم نحن على دين إبراهيم وإسماعيل واسحق ولن يدخل الجنة غلا من كان على ديننا. فأنزل الله ردا عليهم جميعا وخطابا للمسلمين قوله (ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوءا يجز به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا. ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا) فهذه الآية وأسباب نزولها صريحان فيما قلناه من أن أهل الكتاب من الناجين وممن يدخلون الجنة ويثابون على أعمالهم الحسنة كالمسلمين إذا توافرت فيهم هذه الأمور الثلاثة المتقدمة وهي الإيمان بوجود الله وباليوم الآخر والعمل الصالح.

ولكن أهل التقليد من المسلمين البعيدين عن التحقيق لا يزالون ينكرون أن أهل الكتاب من الناجين وممن يدخلون الجنة وينالون ثواب أعمالهم الطيبة ولو توفرت فيهم هذه الأمور الثلاثة المذكورة ما داموا لم يدخلوا في دين الإسلام رغم الآيات المتقدمة ورغم آيات أخرى كثيرة جدا كقوله تعالى: (ومن يؤمن بالله فلا يخاف بخسا ولا رهقا). وقوله: (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا، ولا تحزنوا، وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون). وقوله: (فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وإنا له كاتبون). وقوله: (إنا لا نضيع أجر المصلحين). وقوله: (ولا نضيع أجر المحسنين). وقوله: (إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا). وقوله (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة التي تشمل أهل الكتاب.

وأما قوله تعالى (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا) الذي استدل به المفسرون على إخراج أهل الكتاب من مضمون هذه الآيات وعلى أن اليهود والنصارى لا ثواب لهم في الآخرة على أي عمل من أعمالهم الحسنة فهو استدلال في غير محله لأن من عادة القرآن أن يعبر عن اليهود والنصارى بلفظ (أهل الكتاب) لا بلفظ (الذين كفروا) المذكور في هذه الآية. والمراد من (الذين كفروا) هنا الكافرون بوجود الله وبيم الجزاء أي كيف أن الذين كفروا بوجود الله وبيوم الثواب يكون لهم أجر وثواب عند الله ما داموا كافرين به غير مقرين بوجوده وبيوم حسابه وجزائه، فهؤلاء إذن تكون

جميع أعمالهم كسراب لا ثواب لهم عليها من الله الذين هم كافرون به وبثوابه، ولكن اليهود والنصارى من أهل الكتاب لا ينكرون وجود الله ولا ينكرون ثوابه وعقابه، وحينئذ فلا يدخلون في هذه الآية كما لا يخرجون من الآيات السابقة لأنهم يعملون كثيرا من الصالحات والخيرات والحسنات، وكثير منهم يعدون من المحسنين ومن المصلحين كالمسلمين.

وهل يعقل أن من يعمل أعمالا نافعة للإنسانية ويصرف كثيرا من أمواله في مصلحة البشرية وكان مؤمنا بالله نافعا لعباد الله يسارع في الخيرات ويعمل الصالحات ويفيض بالإحسان والمبرات تكون أعماله هذه كسراب لا أجرا له عليها ولا ثواب له فيها لكونه يهوديا أو نصرانيا، إن هذا مما لا يكاد يعقل.

كيف يكون هذا والله تعالى يقول في كتابه العزيز (من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله أناء الليل وهم يسجدون. يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين. وما يفعلوا من يخر فلم يكفروه بالله عليهم بالمتقين) وعليه فكلام المفسرين في هذا الموضوع لا تحقيق فيه ولا دليل عليه. ولكن كلامنا فيه وفي معنى قوله تعالى (إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى إلخ..) وإن كان مخالفا لكلام المفسرين إلا أنه هو المعقول الموافق لصريح آيات القرآن الكريم.

ومما ذكرناه في هذا الموضوع يظهر لك أن الله تعالى يقدر الأعمال الطيبة النافعة ويثيب عليها كل من فعلها بإيمان بثوابها وبمن يثب عليها، أما من كفر بثوابها وبمن يثب عليها فهذا لا ثواب له بل يكون علمه كسراب لا وجود له ولا فائدة تعود عليه منه، وقد وضحت هذا الموضوع تمام التوضيح في بحث (تساوي الأديان في نظر القرآن) فراجعه إن شئت في الجزء الثاني من هذا الكتاب.

وبالجملة فإن القرآن الكريم لا يحابي أحدا ولا يمقت دينا لأن مبدأ الأديان كلها في نظره مبدأ واحد وغاية الأنبياء جميعهم عنده غاية واحدة وإن النبي اللاحق لم يأت لإبطال الدين السابق أو التنديد به بل أتى لتنقية الدين السابق مما ألصق به من خرافات وأوهام وتقاليد وأفهام كانت قد علقت به حتى صارت جزء منه بتقادم الزمان فيأتي الدين اللاحق فيزيل عنه تلك الأوهام والخرافات وينقيه من آثار تلك التعصبات والتحزبات وحينئذ فالدين السابق واللاحق هما بالحقيقة شيء واحد وأن كليهما يوصل إلى الجنة في كل زمن من الأزمان الحاضرة والماضية المستقبلة، وإن كان لا بد وأن يعاقب إتباع كل دين بما جنوه على دينهم وما زادوا فيه من اعتقادات باطلة أو من خرافات وأوهام ما أنزل الله بها من سلطان.

ولو أننا نترك التعصبات الدينية جانبا والتقاليد الوراثية ناحية، وننظر إلى أصول ومبادئ وغايات هذه الأديان نظرة حقيقية لما وجدنا فيها شيئا من المخالفة والمناقضة والمغايرة إلا في كيفية تأدية بعض الطقوس والعبادات التي تختلف باختلاف الأمم والأزمات والعادات قال تعالى (ولكل أمة جعلنا منسكا هم ناسكوه) والمنسك مأخوذ من النسك وهو العبادة أي جعلنا لكل أمة عبادة خاصة بهم يتعبدون وينسكون بها، وعلى كل فإن في الإمكان الآن توحيد هذه الأديان في مبادئها وغاياتها وفي أحكامها ومعاملاتها ولكن بشيء من التعقل والتدبر وبترك التعصب والتحزب.

سؤال من مجلة الهلال المصرية

في أنه "هل يمكن توحيد الإسلام والنصرانية"

وجوابي عليه

كان صاحب مجلة الهلال المصرية قد وجه سؤالا لرجال الدين الإسلامي والمسيحي وهو (هل يمكن توحيد الإسلام والمسيحية) وكان قد أجاب على هذا السؤال كثير من أهل الدينين أجوبة مختلفة وكنت قد أجبت عليه أيضا في العدد العاشر من المجلد السابعة والأربعين من الهلال المؤرخ ١٥ جمادي الآخرة سنة ١٣٥٨هـ الموافق أول أغسطس سنة ١٩٣٩م بجواب أثبت فيه إمكانية توحيد الدينين بسهولة. وبالنظر لكون هذا الجواب له مساس بموضوع هذه الآية فإني أذكره هنا بنصه مع مقدمة صاحب مجلة الهلال حيث قال: (كانت مجلتنا قد ألقت سؤالا تحت عنوان (هل يمكن توحيد الإسلام والمسيحية) على رجال الدينين

المسيحي والإسلامي أثر نشرها صفحات من مذكرات المستر (بلنت) عن المغفور له الشيخ محمد عبده. وقد ساهم في الجواب على هذا السؤال طائفة من خيرة العلماء وهنا ننشر جوابا حسنا لفضيلة الشيخ عبد الله القيشاوي من علماء غزة بفلسطين.

قال فضيلته رأيت في الجزء السابع والثامن من (هلال) سنة ١٩٣٩م ثلاثة أجوبة عن هذا السؤال أحدها لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد عرفة وثانيها لحضرة القس إبراهيم سعيد وثالثها لحضرة الايغومانس إبراهيم لوقا. ولقد رأيت في هذه الأجوبة كلاما حسنا وروحا طيبة وحبا حقيقيا لتوحيد (الإسلام والمسيحية) غير أن القس إبراهيم سعيد وإن قال بإمكان توحيد الديانتين إلا أنه جعل ذلك من حيث الأسلوب الروحي فقط. وهذا وإن كان حسنا إلا أن الدين الإلهي إنما هو لأمور الروحية والمادية معا ليكون الإنسان سعيدا في جميع أحواله وأطواره واتجاهاته، سعيدا من حيث العقيدة والأخلاق، سعيدا من حيث الأعمال والنظام الاجتماعي واعتقد أن سؤال (الهلال الأغر) إنما هو عن توحيد الدينين في كلا الأمرين.

وأما الايغومانس إبراهيم لوقا فإنه استصعب توحيد الإسلام والمسيحية في كلا الأمرين جميعا ولكنه استسهل الجمع بين المسلمين والمسيحيين في مصالحة الوطن ثم قال (لا سبيل إلى الوحدة الكاملة بين المسيحية والإسلام إلا أن تعتنق أحداهما مبادئ الأخرى فإما إيمان بلاهوت المسيح وتجسده وموته وقيامه فيكون الجميع مسيحيين وإما الإيمان بالمسيح كمجرد واحد من الرسل والنبيين فيصبح به الجميع مسلمين) انتهى.

وإنني أرى أن هذا مما يجب أن يعالج في توحيد الإسلام والمسيحية كما يجب أيضا أن يوازن ويقارن بين عقائد ومبادئ وتعاليم الدينين فأيهما يظهر أنه أقرب للعقل وأدخل في القلب وأحسن في النظام وأدق وأوفق في المعاملات والأحكام، وأسهل وأبسط وأسلم من غيره من الأديان فهو الذي يلزم أن يقدم، وأن يوجه إليه القلب والنظر. على أنني أعتقد أن كل من يتأمل ويدقق في القرآن والإنجيل ويريد أن يفهمها على الوجه الصحيح لا على وجه التقليد الأعمى فإنه لا يشك في أن الديانتين واحدة في الأصل والمبدأ والغاية، وإن الأمور الخلافية بينهما لا يصعب التوفيق بينهما أصلان بل ذلك سهل جدا على من يجرد نفسه من (التعصب) لعقيدته الموروثة ويريد أن ينظر إلى الحقيقة من حيث ذاتها.

وإنني أريد الآن أن أعالج بوجه الإجمال الخلافات الرئيسية بين (الإسلام والمسيحية) لعل ذلك يكون نواة اتفاق بين الديانتين وأساس توحيد بينهما ومبدأ تفاهم بين أتباعهما وإن أدى ذلك غلى بعض نقاش قد يكون سببا في إظهار الحقيقة واضحة.

إن من الأمور الخلافية الرئيسية (التثليث) مع أن الأمر فيه ظاهر لا يحتاج إلى تطويل نظر متى حكمنا الإنجيل في ذلك والإنجيل إنما يصرح (بالتوحيد) تمام التصريح وليس فيه ما يدل على التثليث أبدا كما يظهر ذلك لكل متأمل مدقق في كثير من آياته كقوله في الإصحاح السابع عشر من إنجيل مرقس (إن أول الوصايا هي اسمع يا إسرائيل الرب الهنا رب واحد) إلى غير ذلك من الآيات الإنجيلية الكثيرة التي تصرح بالتوحيد تمام التصريح وتنافي التثليث تمام المنافاة مع عدم وجود أي دليل من الإنجيل على هذا التثليث. فالتثليث في الحقيقة إنما هو عارض في الديانة المسيحية طارئ عليها ممن دخلوا فيها من أرباب التثليث الأقدمين. وعليه فالمسيحية والإسلام متحدان في التوحيد.

الأمر الثاني من الأمور الخلافية (إلوهية المسيح أو بنوته لله تعالى) وقد أقر علماء المسيحيين أنفسهم بأن معنى إلوهيته أو لاهوته إن فيه نورا إلهيا أي أنه مظهر من مظاهر الله وأن بنوته له تعالى إنما هي بنوة عطف ورحمة وبنوة تأديب وتعلمي وتعظيم له، لا بنوة نسب وولادة، وعليه فإن هذين الأمرين بهذا المعنى لا يخالفان أيضا الإسلام الذي يعتبر أن هذين المعنيين موجودان في كل نبي من أنبياء الله تعالى وان تفاوتت درجاتهم فيهما إذ أن كل نبي إنما هو مظهر من مظاهر الله تعالى وكل واحد منهم هو ابن الله بهذا المعنى كما ورد ذلك في كثير من آيات التوراة والإنجيل في حق كثير من الأنبياء والمرسلين.

الأمر الثالث: الفداء وكفارة الخطايا وهذا لو فهم على حقيقته من أن المسيح عليه السلام قد فدى العالم أي تحمل الآلام والمشقات حتى الموت في سبيل هداية الناس وإسعادهم ومنعهم من ارتكاب الذنوب والخطايا في المستقبل بسبب إيمانهم به وإتباعهم له في أوامره وأعماله لما عارضهم لذلك أحد من العقلاء لأن الفداء والكفارة بهذا المعنى قد تحققت في كثير من الأنبياء فمنهم من قتل ومنهم من حرق أو ذبح في هذا السبيل.

ولكن الفداء والكفارة بمعنى أن دم المسيح يكون كفارة وفداء عن ذنوب الناس وخطاياهم بعد فعلها وبعد ارتكابها فهذا أمر لو دقق فيه المسيحيون أنفسهم لما وجدوا له من العقل سبيلا خصوصا وأن ذلك يجرئ الناس على فعل الذنوب والمعاصي اتكالا على هذه الكفارة.

نعم لو اعتقد المسيحيون كما يعتقد المسلمون من أن كل من يؤمن بالرسول الذي أرسله الله تعالى في زمنه فإن إيمانه به يكفر عنه ما مضى من خطيئاته وذنوبه قبل هذا الإيمان لأنه دخل بهذا الإيمان في طور جديد وولد به ولادة جديدة لكان ذلك حقا معقولا. واعتقد أن هذا هو ما أراده الإنجيل في معنى الفداء والكفارة. وعلى كل حال فإن توحيد (الإسلام والمسيحية) في هذا الأمر سهل جدا لا يحتاج إلا إلى قليل من التأمل.

الأمر الرابع، قيامة المسيح من الأموات. وهذا أمر لو رجع المسيحيون فيه إلى أن أناجيلهم التي تصرح بأن المسيح بعد حادث الصلب قد ظهر لتلاميذه واجتمع بهم وأكل معهم لعلموا أنه لم يحصل له الموت فعلا، بل نجاه الله منه حسب ما ورد في الإنجيل من أن المسيح قد طلب النجاة من الله وأن الله قد استجاب له فيها لأجل تقواه. وهذه النجاة إما أن تكون بإفلاته من أيدي اليهود وذهابه إلى (ربوة ذات قرار ومعين) وصلب يهوذا الأسخريوطي عقب حادثة الصلب وحيث يقول المسيح نفسه في الإصحاح السابع من يوحنا خطابا لليهود حينما صمموا على طلبه وإمساكه ليقتلوه (ستطلبونني، ولا تجددونني)، إذ لو وجدوه وأمسكوه حينما طلبوه لكان المسيح كاذبا في قوله هذا حاشاه الله من ذلك.

وإما أن تكون نجاته بإخراجه من القبر بحياته الأولى كما يفهم ذلك من عبارات الإنجيل الواردة في هذه الحادثة وحينئذ فمعنى قيامته من الأموات على هذا القول قيامته من بينهم لأنه كان مقبورا مثلهم وإن لم يمت فعلا. وعلى كل حال فإن ذلك لا يعارض قول القرآن الكريم (وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم) أي شبه لهم أنهم قتلوه صلبا. وذلك أن اليهود كانوا مصممين على قتله بإحدى طريقتين: الأولى قتله غيلة وعلى غرة كما يستفاد ذلك من قول إنجيل متى ٤:٢٦ (وتشاوروا لكي يمسكوا يسوع بمكر ويقتلوه) : الطريقة الثانية قتله بالمحاكمة العلنية وعقابه بالصلب من طرف الحكومة كما يستفاد ذلك من إنجيل لوقا (٢:٢٣) (وبدأوا يشتكون عليه قائلين إننا وجدنا هذا يفسد الأمة ويمنع أن تعطى جزية لقيصر)، إلى أن قال: (فصرخوا قائلين اصلبه. اصلبه)، إلى أن قال: (فحكم بيلاطس أن تكون طلبتهم وأسلم يسوع إلى مشيئتهم)

ولكن اليهود لم ينجحوا فيما أرادوا بالمسيح لا بالطريقة الأولى ولا بالطريقة الثانية وهذا ما أراده القرآن بقوله (وما قتلوه وما صلبوه) أي لم يقتلوه اغتيالا على غرة ولا صلبا بواسطة الحكومة بل نجاه الله من ذلك كله وان كان قد وضع على خشبة الصليب كما يقول البعض. لأن الصلب وإن لم يمت بذلك. والقرآن إنما يتكلم على حسب اللغة. وقد وجد في الإنجيل أكثر من اثني عشرة آية تصرح بأن المسيح وجد حيا بعد حادثة الصلب وهذا يؤيد القرآن في أن المسيح عليه السلام لم يقتل بالصلب.

وأما ادعاء أنه قتل ومات فعلا ثم صار بعد ذلك حيا كما يقول كثير من المسيحيين تقليدا فقط فهو أمر لا يكاد يعقل خصوصا بعد الاطلاع على الأدلة الكثيرة من التوراة والإنجيل والقرآن والعقل التي تدل على أن الجسم بعد موته وجمود دمه واختلال أجزائه بالموت لا يعود إلى الحياة في الدنيا مرة أخرى إلا كما خلق أولا أي بالطريقة التي خلق بها من قبل. ولذلك فإن كثيرا من عقلاء المسيحيين وعلمائهم أنكروا قيام المسيح حيا من بعد موت حقيقة وقد أوضحت هذا الموضوع تمام التوضيح في الجزء الثاني من كتابنا (أفكار مؤمنين في حقائق الدين) فمن أراد الوقوف على هذا الموضوع تماما فليراجعه.

على أن هذه المسألة إنما هي مسألة تاريخية لا يتوقف عليها صحة الدين أو عدم صحته، وعلى كل فتوحيد الإسلام والمسيحية فيها أيضا أمر سهل عند من يحب الحقيقة لذاتها.الأمر الخامس: نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وهذا أمر يكفي في إثباته من جهة النقل ما ورد في الإصحاح الأول من إنجيل (يوحنا) والسابع عشر من (متى) من أنهم كانوا ينتظرون ثلاثة أشخاص إيليا والمسيح والنبي وأن الذي يأتي أولا هو إيليا ثم المسيح ثم النبي.

وما ورد أيضا من أقوال المسيح الكثيرة من أنه لا بد من مجيء معزى آخر بعده يمجده ويشهد له ويذكر الناس بكل ما قاله ويعلمهم أمورا كثيرة ويرشدهم إلى جميع الحق إلى غير ذلك مما ورد في الإنجيل من هذا القبيل منطبقا على محمد تمام

الانطباق. كما انطبقت عليه كثير من آيات التوراة حسبما وضحت ذلك في كتب المناظرة بيني وبين القس الفريد نيلسن الدنمركي مما لا لزوم للتطويل بذكرها الآن.

ويكفي في إثباته من جهة العقل أن محمدا قد أحيا أمته وهذبها وعلمها وهو أمي بدرجة لم يستطعها نبي قبله حتى جعل أمته أرقى الأمم علما وتشريعا وأخلاقا وآدابا، وجعلها تسيطر على معظم العالم في مدة قصيرة بحيث لم يسبق ذلك لأمة ولا لنبي قط. وعليه فثبوت نبوته أظهر جدا من نبوة من قبله. وما جعله الناس دليلا على نبوة الأنبياء قبله فهو دليل على نبوته ولكن بصورة أوضح وأظهر.

هذه هي الأمور الرئيسية في الخلاف بين (الإسلام والمسيحية) لو تدبر فيها العقلاء وتخلوا عن التقليد الأعمى لما وجدوا بين الدينين خلافا أصلا ولتحققوا مكان التوحيد بينهما بصورة سهلة جدا. وقد وضحت كل مواضيع الخلاف بين الإسلام والمسيحية تمام التوضيح في كتب المناظرة الكتابية التي جرت بيني وبين القس ألفريد نيلسن الدنمركي التي منها كتاب (كلمة سواء) المطبوع سنة ١٩٣٤م والجزء الثاني وما بعده من كتاب (أفكار مؤمنين في حقائق الدين) المطبوع سنة ١٩٣٩م فمن يراجعها يجد أنه من السهل جدا التوفيق بين الإسلام والمسيحية بصورة جدية عملية.

على أننا نحن المسلمين مكلفون من طرف ديننا أن نؤمن بالمسيح وبإنجيله المعتمد الصحيح فكل مسلم هو مسيحي وزيادة. وعليه فأي غضاضة على مسيحي العرب في هذا الشرق أن يكونوا مسلمين ومسيحيين كما نحن مسلمون ومسيحيون إذ لا يخرج المسيحي لو أسلم عن مسيحيته الحقيقية أصلا، ولا عن نصرانيته الحقة أبدا. وماذا على مسيحي العرب لو اتبعوا سيدا من قومهم وافتخروا بعظيم جنسيتهم وانتموا إلى مشرع من أرومتهم، وصدقوا نبيا من سلالة أجدادهم وهم أليس ذلك أولى وأوفق بهم وبصالح وطنهم، وأفخر لعروبتهم وقوميتهم وأوفى لوطنيتهم وجنسيتهم وبذلك يتحقق (توحيد الإسلام والمسيحية) فعلا وقولا. انتهى ما كنا نشرناه في مجلة الهلال جوابا لذلك السؤال.